المحاضرة السابعة /

العراق في العهد العثماني الثاني

1750-1638

الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش:

اعتلى السلطان مراد الرابع العرش في 10 ايلول 1623م، وكان صبيا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة، ويعد من السلاطين القلائل الذين استطاعوا في السنوات الاخيرة من حكمهم، أن يحكموا حكما فعليا، فقد كانت والدته (كوسه م) هي المهيمنة على الحكم حتى سنة 1632م وبعد هذه السنة استطاع مراد الرابع أن يأخذ زمام الحكم بيده بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية.

تسلم مراد الرابع عند اعتلائه العرش تركة مثقلة بالمشاكل الداخلية والخارجية، فعلى الصعيد الداخلي استمر تمرد الانكشارية وتدخلهم في عزل ونصب الصدور العظام، فقد كانت الانكشارية في هذه الفترة فقدت حيويتها واندفاعها وتحولت إلى عنصر فوضى وفساد تاركة التدريب الصارم واصبحت اشبه ما تكون بطبقة مدنية تكره الرقابة النظامية وتتدخل في عزل الوزراء والسلاطين كأنها هي الحاكمة في الدولة وليس السلطان. فقد بدأت فوضى الانكشارية في اعقاب وفاة السلطان القوي سليمان القانوني، فهم لم يسمحوا لسليم الثاني(1566-1574) باعتلاء العرش حتى يدفع لهم الاعطيات. وفي تطور خطير اصبح للانكشارية دور في تحديد مصير كبار رجال الدولة في عهد السلطان مراد الثالث(1574-1595)، فقد تم قتل الدفتر دار وبكلربك الروملي امام عجز السلطان عن حمايتهم وكان ذلك عام 1589 في الحادثة المعروفة باسم واقعة البكلربك. كما اسهم الانكشارية في عزل السلطان عثمان الثاني(1618-1622)، ثم مقتله على يديهم، وعلا نتيجة ذلك شان الانكشارية فاخذوا يولون الوزراء ويعزلونهم. ولم يكتف الانكشارية بهذا

بل انهم عزلوا مرة اخرى السلطان مصطفى الاول(1622-1623)، وولوا مكانه السلطان مراد الرابع(1623-1640). وفي عهده اقدموا على قتل الصدر الاعظم داماد حافظ باشا(تولى الصدارة في 1625-1626و 1632)، بعد ان تمردوا عام 1632، واجبروا السلطان على تولية الداماد رجب باشا صدرا اعظما.

وكذلك فان علماء الدين الاعلام الذين كانوا يمثلون القوة الروحية في الدولة العثمانية بدأوا يتسامحون في الامور الشرعية، والأسوأ من ذلك افلاس الخزينة الذي لم يكن سببه قلة واردات الولايات فحسب بل أيضاً التبذير المفرط في امور اللهو التي كانت تجري في بلاط السلطان خاصة على الحريم اللواتي كن احد الاسباب في ضعف الدولة العثمانية وانهيارها.

أمّا على الصعيد الخارجي، فقد كانت الاتجاهات اللامركزية والنزاعات الانفصالية واضحة للعيان في بعض الولايات العثمانية، تلك الاتجاهات والنزعات التي تكشف لنا عن مدى ضعف الدولة العثمانية، ففي اسيا الصغرى حمل الثائر أباظة باشا الذي كان قد تجمع تحت امرته اربعين الف انكشاري، لواء العصيان واخذ يقوم بهجمات على الولايات المجاورة، بل وانه اخذ في جباية الضرائب ويجند الجنود بحجة الانتقام لدم السلطان عثمان الثاني (1618-1622م) وقد مد سيطرته على انقرة وسيواس، بل كادت بروسة أن تقع في قبضته ولولا قلعتها الحصينة، كما أن الامير الدرزي في لبنان الامير فخر الدين المعني الثاني (1572-1635م)، كانت له علاقات وثيقة مع القوى الاوربية المناهضة للدولة العثمانية، وخاصة تلك التي كانت لا تزال متمسكة بضرورة استمرار الحروب الصليبية بشكلها التقليدي السابق مثل فلورنسا والبابوية، وكانت امال هذه القوى معلقة بفخر الدين المعني الذي قام بزيارات سرية إلى ايطاليا واجتمع مع البابا بولس الخامس وعند عودته سنة 1618 شرع في تقوية امارته وتوسيعها لمواجهة الصدام الذي كان يتوقع حدوثه اجلا أو عاجلا مع القوى العثمانية في طرابلس ودمشق. ولم تكن الاضطرابات الدائرة في الولايات العثمانية الأخرى اقل خطورة، فحكام مصر كانوا تابعين للسلطان اسميا فقط، والادهى من ذلك أن

بغداد اصبحت في قبضة الصفويين سنة 1623م بعد حادثة بكر صوباشي التي ادت إلى نتائج خطيرة كما ذكرنا سابقا.

وهكذا نرى أن الدولة العثمانية كانت تعاني من مشاكل داخلية وخارجية عند اعتلاء السلطان مراد الرابع العرش، غير أن السلطان مراد الذي اشتهر بانه اخر السلاطين العظام الذي تمكن من اعادة الحيوية والنشاط إلى جسم الدولة العثمانية لم يترك بقاء هذه الاوضاع على ما كانت عليه، بل اتخذ سلسلة من الاجراءات في مواجهة القوى المناهضة للدولة العثمانية، والقضاء على المعارضة الداخلية المتمثلة بالانكشارية.

ـ الحملات العثمانية لاستعادة العراق(1625ـ1638):

كان سقوط بغداد في ايدي الصفويين امر في غاية الخطورة بالنسبة الى الدولة العثمانية، وعلى الرغم من مرحلة الضعف التي كانت تمر بها آنذاك، فإنها لم تتوان عن محاولة: "استعادة انبل مدن اسيا". لذا فقد ارسلت الحملات العسكرية الواحدة تلو الأخرى، هذه الحملات التي يمكن أن نسميها بالحملات الاسترجاعية التي اخفقت في تحقيق هدفها، ومن هذه الحملات:

1.حملة حافظ احمد باشا 1625:

اسندت السلطنة العثمانية مهمة استرجاع بغداد الى الصدر الاعظم حافظ احمد باشا، في نفس الوقت لما كان السلطان مراد الرابع مهتما جدا باستعادة بغداد لذا فقد ارسل قوة من حرسه الخاص للسيطرة على الحلة وكربلاء. وعندما وصلت اخبار التحركات العثمانية الى الشاه عباس الكبير ارسل قوة تقدر بثمانين الف مقاتل من القزلباش بقيادة زينل خان بهدف مساعدة الحامية في بغداد، وقد تقدمت هذه القوات حتى وصلت الى شهربان وعسكرت

هناك. بعد ذلك زحفت القوات الصفوية الى بهرز وتمكنت من مد جسر من السفن على نهر ديالى لتعبر قواته باتجاه بغداد. ولما كان هدف القيادة العسكرية العثمانية قطع خط الاتصال بين القوات الصفوية المتمركزة في النجف والحلة، وبين القوات الصفوية المتواجدة في بغداد، فان قوة عثمانية بقيادة مراد باشا والي ديار بكر زحفت نحو بغداد في تشرين الثاني 1625م، والتحقت به قوات امير امراء الاناضول الياس باشا حتى بلغ عدد قوات الحملة حوالي خمسة عشر الف جندي، واصطدمت هذه القوة بتلك التي يقودها زينل خان الا انها لم تتمكن من صد القوات الصفوية وبالتالي اخفقت في مهمتها لقطع خط الاتصال، إذ استطاع عدد كبير من القوات الصفوية دخول بغداد، في هذا الوقت كان الصدر الاعظم حافظ احمد باشا الذي كلف بمهمة قيادة الحملة الزاحفة نحو بغداد، قد خرج من العاصمة بعد أن تجمعت تحت رايته قوات من الروميلي والاناضول ومصر والشام، فسلك طريق ماردين، ثم اسكي موصل، والزابين الكبير والصغير حتى وصل إلى كركوك. وقد عقد الصدر الاعظم في كركوك مجلسا حربيا، لمناقشة كيفية التوجه نحو بغداد، وكان من راي الصدر الاعظم السيطرة أولاً على نقاط الحدود ومراكز الامداد الصفوية في درنة ودرتنك، ثم التوجه نحو بغداد، لان التوجه المباشر لا يجدي نفعا، خاصة وان حملة مراد باشا لم تحقق هدفها في السيطرة على الحلة والنجف لمنع وصول تعزيزات صفوية إلى الحامية الايرانية في بغداد.

انقسم قادة الحملة إلى فريقين بين مؤيد لراي الصدر الاعظم ومعارض له، وسادت صفوف الجيش موجة من الفوضى والاضطراب نتيجة هذا الانقسام، واخيرا وافق الصدر الاعظم على رأي الفريق المعارض والقاضي بالتوجه المباشر نحو بغداد، قبل تحرك الحملة من كركوك، استقبل الصدر الاعظم رسولا من حاكم بغداد الفارسي صفي قولي في تشرين الأول 1625م، وقد عرض الرسول على الصدر الاعظم فكرة مراسلة الشاه، إن كان مصرا على فتح بغداد، ولكن الصدر الاعظم رفض ذلك. ويظهر أن مهمة الرسول ليست مهمة عرض مراسلة الشاه، وانما كانت مهمة جاسوسية لغرض الاطلاع على تحركات الحملة

وعددها، والحصول على معلومات عن خططها العسكرية، ومهما يكن من امر فان مجيء الرسول الصفوي قد اثر في خطة الحملة العسكرية، فقد اجرى الصدر الاعظم بعض التغيرات في قيادة الجيش، كما ارسل سليمان باشا إلى الموصل لغرض جمع الذخيرة وامر الصدر الاعظم ببقاء بستان باشا في كركوك خوفا من هجوم صفوي مباغت من جهة الشرق.

وصل الصدر الاعظم إلى جوار مرقد الامام الاعظم في 11 تشرين الثاني 1625م وعلامات التعب بادية على جيشه، وبعد يومين أي في 13 تشرين الثاني، كان الجيش العثماني، قد اتخذ اماكنه المقررة حول سور بغداد كما كان السكبانية قد دخلوا المتاريس التي حفرت ساعة نزول الحملة، وقد استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني ساعة نزول الحملة، استمر الحصار الذي ضربه الجيش العثماني حوالي شهرين انفجر خلالهما اثنان وخمسون لغما، وكان الجيش العثماني يملأ الخنادق بسعف النخيل ولكن دون أن يقوم باي نشاط عسكري، فمل كثير منهم من طول الحصار بينما كان الصفويين يشعلون الاف المشاعل كل ليلة، ويقيمون الاحتفالات ايذانا بوصول امدادات عسكرية جديدة لهم يقودها الشاه الصفوي نفسه، وبالرغم من الحصار المفروض على بغداد، فقد كانت القوات الصفوية تدخلها كلما وجدت فرصة لها، وقام الجيش العثماني بهجوم عام، ولكن الصفويين تمكنوا من صد الهجوم بالرغم من انفجار الالغام التي وضعها الجيش العثماني في بعض المناطق من السور وقد خسر العثمانيون في هذا الهجوم، كثيرا من الجند، اضافة إلى الخسائر التي منيت بها القوات العثمانية في شهربان على يد القائد الصفوي زينل خان. بعد هذه النكسة العسكرية، عقد حافظ باشا اجتماعا حربيا لاتخاذ التدابير اللازمة لوقف هذا التدهور الخطير، وقد ارتفعت اصوات الانكشارية مطالبة القتال ورفض فكرة الرجوع التي طرحت من قبل بعض القادة، فوافق الصدر الاعظم على الاستمرار في القتال وطلب إمدادات عسكرية من الباب العالي والبصرة. واثناء عقد الاجتماع، كان القائد الصفوي زينل خان يلحق ضربات قوية بقوات والي سيواس طيار محمد باشا في منطقة ديالى، كما كانت القوات العثمانية المتمركزة في النجف واطرافها تعاني هي الأخرى من هزائم متكررة امام الجيش

الصفوي، فاخذ الضبط العسكري في الجيش العثماني ينحل تدريجيا، وبدأ القادة كل واحد يتهم الاخر بتحمل مسؤولية هذه الهزائم، وسط هذا الفزع والقلق الذي كان يسود صفوف الجيش العثماني من جراء الاخفاق في السيطرة وقوة المقاومة الصفوية، جرت مناوشة بين الطرفين، لكن لم تسفر عن اية نتيجة سوى وقوع بعض الاسرى من الطرفين.

بدأ الصفويين يضيقون الخناق على العثمانيين، عندما سيطروا على جميع الطرق الموصلة إلى بغداد، كما وقعت مخازن العتاد في الفلوجة تحت سيطرة الصفويين واستمرت المراسلات بين الطرفين إذ طلب الشاه من الصدر الاعظم فصل بغداد عن الدولة العثمانية زاعما انها مقاطعة صفوية لكن الصدر الاعظم رفض ذلك بشدة. وجرت المعركة الاخيرة بين الطرفين في 27 ايار 1626م، وكانت غير متكافئة بسبب وصول امدادات عسكرية للصفويين وعلى راسها الشاه عباس، وكان وجود الشاه بين جنده باعثا على رفع معنوياتهم. فبدأ الصفويون هجومهم من ثلاث جبهات في وقت واحد، وكان الشاه يرفع معنويات جنده بخبطة الرنانة، فيزيد من اندفاع جنده، ولم يكن الجيش العثماني اقل اندفاعا في القتال، ولكنه كان جيشا ينقصه الضبط والقيادة الحازمة اضافة إلى قلة الذخيرة والاسلحة، ومع ذلك فقد احرز في بداية المعركة انتصارات ملحوظة خاصة تحت قيادة خسرو باشا الذي استطاعا التوغل إلى عمق القوات الصفوية، ولكنه اضطر إلى التراجع نتيجة هبوب غبار كثيف جعل الاستمرار في التقدم امرا مستحيلا. ثم دخل الطرفان العثماني والصفوي في مفاوضات لإيجاد حل لهذا المأزق فعقد الصدر الاعظم سلسلة من الاجتماعات مع ممثل الشاه، الاجتماع الأول اثار ممثل الشاه بعدم جواز القتال بين الاخوة المسلمين، وفي الاجتماع الثاني اكد ممثل الشاه المزاعم حول تبعية بغداد للدولة الصفوية، واقترح في اجتماع اخر ترك مدينة النجف للشاه مقابل اعادة بغداد للعثمانيين، فكان جواب الصدر الاعظم بالرفض القاطع لمطالب الشاه. وفي اثناء عقد الاجتماعات بين الصدر الاعظم وممثل الشاه، حصل انشقاق خطير في صفوف الانكشارية حول ما دار في هذه الاجتماعات المطولة وما كاد الاجتماع الاخير ينتهي حتى هجم بعض الجند على خيمة الصدر الاعظم

والقوا عليه القبض متهمين اياه بالتواطؤ مع الشاه وسجنوه في قبة الامام الاعظم على مشهد من ممثل الشاه، لكنه افرج عنه بعد ساعات قلائل نتيجة موقف احد القواد الذين طلب من الانكشارية بانه لا يحق لهم عزله سوى السلطان، واثر هذا الكلام في نفوس الانكشارية فعدلوا عن موقفهم، واخيرا اضطر الصدر الاعظم الى الانسحاب نحو الموصل. وهناك اسباب عديدة لفشل حملة حافظ احمد باشا في استعادة بغداد وهي:

1. قلة الارزاق وتفشي المرض في صفوف الجيش العثماني.
2. انهيار معنويات الجند العثماني نتيجة الفشل في تحقيق نصر حاسم على الصفويين.
3. تمرد الانكشارية بسبب طول فترة الحصار وعدم وصول الامدادات.

وعند وصوله العاصمة، اقصى عن الصدارة العظمى لفشله في استرداد بغداد من يد الصفويين وحل محله خليل باشا الذي اقصى بعد اشهر قلائل، فاصبح في الصدارة خسروا باشا البشتناقي في 6 نيسان/ 1628م، وقد وصف هذا بانه كان مشهورا بالشجاعة والاقدام، إلاَّ انه كان ميالا إلى الدسائس وسفك الدماء، فقد استطاع أن يزيل جميع العقبات التي اعترضته بالدم المسفوك، وتميزت السبل التي سلكها للوصول إلى اهدافه بسلسلة من احداث القتل.

2. حملة خسرو باشا 1629م:

تجددت العلاقات العدائية بين الصفويين والعثمانيين في عهد الشاه صفي(1629-1642)، وتركز الصراع بينهما عل بغداد وارمينيا، فقد استغل السلطان مراد الرابع وفاة الشاه القوي عباس الكبير وصغر سن خليفته، فنهض لاستعادة بغداد من الصفويين، فارسل الصدر الاعظم خسرو باشا على رأس حملة كبيرة في محاولة ثانية لاستعادة بغداد، فبدأ خسرو باشا زحفه من اسكودار في ايار 1629، بعد أن اناب في الصدارة رجب باشا، وسلك طريق اق شهر وقونية ثم حلب، وعند وصوله إلى بيره جك امر بنقل المعدات والتجهيزات إلى

الفلوجة ثم واصل زحفه ووقف قليلا عند ديار بكر حيث انضم إلى حملته بعض البيكات من الاكراد ووصل الموصل في 17 كانون الأول 1629م، حيث كانت المدافع الضخمة التي ارسلت عن طريق قوج حصار ونصيبين في انتظاره. وقد عقد الصدر الاعظم في الموصل اجتماعا حربيا، وبعد مناقشات طويلة استقر رايه التوجه أولاً نحو شهرزور بسبب رداءة الطريق نتيجة كثرة هطول الامطار، واحتمال قيام امراء اردلان بالهجوم على مؤخرة الجيش في حالة التوجه المباشر نحو بغداد، ومن ثم من اجل اتخاذ شهرزور قاعدة عسكرية تحمي ظهر الجيش الزاحف نحو بغداد. ولم يصادف خسرو باشا في اثناء زحفه نحو شهرزور اية صعوبات تذكر، بل قدم كثير من امراء الاكراد، وكذلك بعض امراء اردلان المنشقين عن احمد خان حاكم اردلان، طاعتهم له، اذ ان تسعا وثلاثين قرية كردية قدمت الطاعة إلى الصدر الاعظم، وساعدت ظروف اخرى خسرو باشا في السيطرة على شهرزور هي تورط الشاه صفي مع المغول في الحدود الشرقية من بلاده. امر الصدر الاعظم خسروا باشا بتجديد بناء قلعة (كلعنبر) واستغرق العمل في تجديدها قرابة شهرين، وقد تحمل الجيش العثماني الكثير من الصعاب من جراء العمل المتواصل.

لقد رأى خسرو باشا ان استعادة العراق لا تتم الا اذا عزل عن ايران، ولا يتحقق ذلك الا بالسيطرة على اذربيجان، لذلك اجتاز الاراضي الكردية ودخل الاراضي الايرانية ووصل الى اذربيجان. وعندما علم الشاه صفي بتوغل خسرو باشا داخل الاراضي الايرانية، ارسل قوة عسكرية مؤلفة من خمس واربعين الف مقاتل بقيادة زينل خان للتصدي له، ووقف زحفه، وخرج بنفسه على رأس قوة عسكرية اخرى باتجاه بغداد، وتصدى زينل خان للقوات العثمانية عند قلعة مريفان/ مهربان في 5 ايار 1630 الا انه تعرض للهزيمة ودفع حياته ثمنا لذلك. فتحت معركة مريفان الطريق الى همدان امام القوات العثمانية، فتقدم خسرو باشا الى همدان وفتحها في 9 حزيران، وواصل تقدمه باتجاه قزوين وهناك تصدى له حسين خان حاكم لورستان عند دركزين على طريق همدان-قزوين الا انه انهزم امامه، وعندما علم الشاه صفي بنتيجة المعركة لاذ بالفرار الى الداخل الايراني. وقيل ان خسرو باشا ارسل رسالة إلى

الشاه يباركه بتقلده منصبه الجديد ويعزيه بوفاة جده الشاه عباس ويدعوه للصلح. وبفعل هذا الاندفاع استعاد العثمانيون ايران الغربية، أي كرمنشاه وكردستان ولورستان وخوزستان، كما استعادوا في الوقت نفسه جنوبي العراق عندما هاجم مصطفى باشا حاكم طرابلس الشام الحلة وكربلاء والنجف والكوفة وانتزعها من ايدي الصفويين. وفي دركزين وصل كتاب السلطان مراد الرابع الى خسرو باشا يأمره بالتوجه الى بغداد فاضطر إلى ترك الاراضي الايرانية، واثناء عودته التقى بحملة صفوية بقيادة موراوي خان اصطدم بها وتغلب عليها واحرق مدينة نهاوند، ثم اندفع نحو بغداد فمر بحلوان ودرتنك ثم قصر شيرين وبغداد حيث وصلها في 16 ايلول 1630م، وعد وصوله بفترة وصلت مدافعه من الموصل، فنصب سبعة مدافع باتجاه باب الامام الاعظم، ووضع حامية في قلعة الطيور (قوشلر قلعة سي) لمنع وصول الامدادات إلى الحامية الايرانية من النجف وكربلاء والحلة. كما امر بنصب بعض المدافع في الجانب الغربي من نهر دجلة، واتخذت بعض القوات العثمانية امكانها في مناطق متفرقة من السور بحيث سدت المنافذ جميعها. ثم قام الجيش العثماني في 9 تشرين الثاني 1630م بهجوم عام واستطاع خلاله قسم من الجند اجتياز الخنادق والمتاريس، إلاَّ أن شدة المقاومة الصفوية اجبرت الجيش العثماني على التراجع، بعد أن تكبد خسائر فادحة، وقد قتل في هذا الهجوم احد قادة الجيش العثماني هو كنج عثماني الذي اصيب برصاص في رجله، لذلك سادت موجة من الفوضى والاضطراب صفوف الانكشارية، وارتفعت الاصوات بين مطالب للرجوع ومعارض له حتى اضطر خسرو باشا إلى تنفيذ حكم الاعدام بحاكم اشقوردة اناؤود اسكندر الذي كان من اشد اعداء الصدر الاعظم والذي وقف بوجهه واسمعه كلمات نابية. من جانب اخر كان الشاه صفي في غضون ذلك قد خرج من عاصمته صوب بغداد لمشاركة حاميتها في الدفاع عنها، وعندما علم خسرو باشا بقدومه رأى وهو وسط معارضة الانكشارية ان من الافضل ان يفك الحصار عن المدينة ويعود ادراجه، وهذا ما حصل في 14 تشرين الثاني 1630م، بعد أن استمر الحصار اربعين يوما، وقد سلك الطريق الجنوبي الى اسطنبول عبر حلب، وذلك لاستيلاء القوات الصفوية بقيادة توختة

خان، على درنة ودرتنك وشهرزور. وقد وصل الشاه الى بغداد، ثم توجه الى وسط وجنوب العراق، لاستعادته من العثمانيين وكان خسرو باشا قبل انسحابه قد عين خليل باشا واليا على الحلة ومعه عشرة الاف جندي، ولكن الشاه صفي ارسل قوة مؤلفة من اربعين اف وفرض الحصار على الحلة التي قاومت لمدة ثلاثة اشهر، انتهت بسقوط المدينة بيد الصفويين، ثم عاد الشاه صفي الى اصفهان، وهناك مسببات عديدة يمكن ان تبرز من اجل ان تعليل الفشل العثماني في استعادة بغداد وهي:

1. ان خسرو باشا قد اضاع كثيرا من وقته في تجديد قلعة كلعنبر، الى درجة دفعت البعض الى القول ان هدف الحملة هو تجديد القلعة، وليس فتح بغداد.
2. التكتيك الفني الذي لجأ اليه الصفويون الذين كانوا يبطلون الالغام التي يضعها الجيش العثماني وذلك بصب الماء عليها.
3. الانشقاق الذي حصل بين الانكشارية مما اضطر خسرو باشا إلى التخلي عن الحصار.

يبدو أن هذه الاسباب مجتمعة عملت على فشل حملة خسرو باشا الذي عزل عن الصدارة بعد وصوله العاصمة، في 25 تشرين الثاني 1631م، فحل محله حافظ احمد باشا مجددا وكان عزله بمثابة الشرارة التي اشعلت فتنة الجند في الاستانة والاناضول وهي الفتنة التي اطاحت براس الصدر الاعظم حافظ احمد باشا وكادت أن تؤدي إلى خلع السلطان مراد الرابع نفسه. يظهر أن هذا المشهد الدموي، قد اثر في نفسية السلطان مراد الرابع فصمم على قطع دابر الفوضى، فبدأ أولاً بإيقاف جباية الاطفال المسيحيين الذين كانوا يجلبون صغارا، ويدخلون في مدارس خاصة يتعلمون فيها اللغة التركية وتعاليم الدين الإسلامي اضافة إلى التدريب العسكري الصارم، ليكونوا مؤهلين للدخول في الجيش لانكشاري واستطاع بمساندة بعض الفرق الانكشارية التي اعلنت ولاءها للسلطان، أن يقضي على زعماء التمرد، إذ دعاهم إلى الاجتماع عند البسفور ودبر هناك مكيدة لهم، إذ ابيد كثير منهم، كما قام بإرسال الكثير منهم بمهمات عسكرية إلى انحاء متفرقة من الدولة حيث كان يوصي بالتخلص منهم وكما

اصدر السلطان مجموعة من الاجراءات كانت تهدف وقف الانحلال الذي كان يسود صفوف الجيش الانكشاري، كما وزع الجواسيس في طول البلاد وعرضها، وكان هؤلاء يوافونه بتقارير يومية عن الاوضاع السياسية، بل كان يخرج احيانا بنفسه متنكرا لمراقبة الاوضاع العامة، كما وضع قادة الانكشارية تحت المراقبة. لقد نجح مراد الرابع بعد هذه الإجراءات في فرض سيطرته الكاملة على الدولة، لذا أشار المؤرخون عادة إلى سنة 1632م بانها بداية حكم السلطان مراد الرابع الفعلي، بعد أن تخلص من المشاكل الداخلية، وبدأ يحكم حكما يتسم بالصرامة والقسوة، فاستعادت الدولة العثمانية في عهده بعض هيبتها ونشاطها، في وقت كانت الدولة الصفوية قد اصبحت مسرحا للفوضى السياسية في عهد الشاه صفي الذي لم يكن بذلك الحاكم القدير الذي يستطيع أن يضع حدا للمعارضة الداخلية، فاضطر أن يقوم بسلسلة من الاعدامات في قادة الجيش الصفوي، فتدهورت الاوضاع في عهده إلى درجة كبيرة، وكان ذلك عاملا مساعدا للدولة العثمانية كي تتحرك من جديد لإنقاذ بغداد من السيطرة الصفوية.

3. حملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد:

كانت مسالة استعادة بغداد بالنسبة للسلطان امرا يحتل اهمية كبرى، خاصة وان سيطرة الصفويين لتلك المدينة، قد شجعهم على مد تحرشاتهم إلى بعض المناطق الشرقية في الاناضول. وقبل أن يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد، قاد جيشه في ربيع سنة 1635م متوجها نحو الاقسام الشرقية من اسيا الصغرى لإبعاد الصفويين من المدن التي كانت ضمن حدود الدولة العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة. وما أن حلت سنة 1638، حتى شرع مراد بالتوصية لإعداد حملة لاستعادة بغداد من ايدي الصفويين، وبدأت الاستعدادات في الاناضول للحملة التي كلف بها الصدر الاعظم بايرام باشا التي شملت الذخائر، وتوفير مستلزمات النقل البري والنهري وتم انشاء 800 مركب مائي، فضلا عن توفير مخازن تموينية رئيسة لإسناد الحملة واقعة في بير جك وديار بكر والموصل بشكل خاص لكونها واقعة بالمحور المؤدي الى بغداد.

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد على نهايتها في اوائل شباط 1638م، وامضى الجيش في اسكودار مدة تسعة وعشرين يوما، تم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستسلكه القوات ومناطق راحتها، وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي، بغداد، إلى مائة واحدى وعشرين مرحلة خلال خمسة عشر يوما، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا. كان هدف السلطان من وراء هذا التقسيم المحافظة على النظام وروح الضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد، وتمشيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واقرار الامن والاستقرار فيها. وعلى امتداد سير الحملة، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها.

تحركت الحملة من اسكودار في 8 ايار 1638، وبعد ان قطع عدة مراحل توقف في جافيد خاني، التحق بالجيش بلغار احمد باشا، بيك طرابلس السابق، وواصلت القوات تقدمها فوصلت الى كوك ميدان بالقرب من حلب، في 11 تموز، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر يوما، وفي هذا الموقع انضم إلى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك، وقد بلغ عدد هذا الجيش 1500 رجل ارسلهم والي مصر سلطان زاده، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد.

وصلت القوات العثمانية الى بيره جك قرب نهر الفرات في 19 تموز، ومكثت فيها خمسة ايام، وفيها اتخذت الترتيبات لعبور الجيش نهر الفرات، فبني جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية، في حين عبر السلطان إلى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي، وفي خلال فترة التوقف هذه، تم نصب خمسة مدافع كبيرة، اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية، كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكلر بيك سيواس واسير بوزاوق شمس بك زادة، وفي موقع قريب، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين. واصل السلطان سيره وبعد اسبوع واحد، وصل الجيش إلى منطقة جلاب، وفيها توفى الصدر الاعظم بيرم باشا،

وعين لمنصب الصدارة العظمى والي الموصل، طيار محمد باشا، وعين بصفة مؤقته قره مصطفى باشا.

وصل الجيش إلى ديار بكر في 14 ايلول، وكان في استقباله امير الصحراء ابن ابي ريشة، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام. واثناء وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد، على راس جيش كبير، وقبل التحرك نحو الموصل، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من أمير الصحراء ابن أبي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش، تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا، وامرهم بالتوجه نحو بغداد كقوة استطلاعية. وفي منطقة حكمية، والتي وصلها الجيش، قدم عرب البادية إلى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان بإعدامهم جميعا، وبعد مرحلتين أي في كفر زمان، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر، ودخل الجيش العثماني مدينة الموصل، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام، وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند، وهو يحمل رسالة إلى السلطان مع هدايا ثمينة. وإن السبب في تلك السفارة، يعود إلى سماع ملك الهند بنبأ حملة السلطان ضد الصفويين لاسترجاع بغداد، ولذا فقد اشار ملك الهند في كتابه المرسل إلى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصوفيين، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية. ثم غادر الجيش العثماني الموصل زاحفا إلى بغداد فوصل كركوك، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة، ثم تحرك الجيش من كركوك وصل الى طاش كوبري، حيث امر الجيش بالتحشيد والراحة ليوم واحد، وهنا وصل إلى السلطان خبر انتصار حاكم اخسخة، سفر باشا، على حاكم روان الصفوي، واستولت على ذلك الموقع، كما وصلت أيضاً انباء نجاح الغارة العثمانية على منطقة شهرزور.

عبر الجيش العثماني بعقوبة ثم بهرز، ووصل بغداد في 15 تشرين الثاني، وبدأت اجراءات فرض الحصار على المدينة. مما يلاحظ ان السلطان قد حشد قواته على الجهة الشرقية من بغداد، لان استحكامات الصفويين في هذه الجهة كانت ضعيفة، لاعتقادهم ان

السلطان سيهمل هذا الجانب كما فعل قادة الحملات السابقة. وقد وصلت المدافع العثمانية التي رافقت الجيش عن طريق البر، فوزعت على الفور على جميع الجبهات. بوشر بالقتال بين الطرفين ويظهر من مجريات المعارك ان الغلبة كانت للجيش العثماني، وكانت المدفعية العثمانية قد اثبتت تفوقها في ضرب الجيش الصفوي، ففي بواكير اليوم الثالث انطلقت المدافع من ثلاث جبهات لقصف الاسوار. وتواصل القتال خلال اليومين اللاحقين، وقد اشتد قصف المدفعية من الجانبين. وفي اليوم الرابع من الحصار ارسل السلطان بعض قواته بقيادة شاهين باشا لترابط في اطراف ديالى لتكون قوة دفاعية، ولتقطع الطريق على القوات الايرانية في حالة زحفها نحو بغداد لإمداد الحامية المحاصرة. ونتيجة لعجز القوات الصفوية من فك مساعدة الحامية المحاصرة طلب الشاه عقد الصلح مع الصدر الاعظم لكن السلطان رفض عقد الصلح. وفي اليوم الثامن من الحصار أي في 23 تشرين الثاني كانت المتاريس العثمانية قد وصلت بالقرب من الخندق، في وقت تهدمت فيه الكثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية. وجرت في البداية مناوشات بين الطرفين اسفرت عن اسر اثني عشر صفويا، امر السلطان بإعدام اربعة منهم في الحال. وفي نفس اليوم قام الصدر الاعظم طيار محمد باشا بهجوم مباغت اسفر عن احداث ثغرة في جانب الباب الابيض من سور بغداد بطول ثمانين ياردة. وقد استطاعت المدفعية العثمانية احداث تدميرا بالغ في تحصينات اسوار بغداد اذ نجحت في تدمير سورين من اسوار بغداد، وكما استمر القتال بين الطرفين بدون انقطاع معتمدا على القصف بالمدافع وتبادل النيران. واشترك مع القوات العثمانية في فرض الحصار على بغداد امير العرب (أبو ريشة) الذي كان يقود قافلة مؤلفة من عشرة الاف جمل محمل بالأرزاق للجيش، وفي اثناء ذلك تقدمت قوات الشاه نحو ديالى لكن قوات السلطان تقدمت لصد هذه القوات التي انسحبت فيما بعد لسماعهم بنبأ وصول القوات العثمانية.

شن الصدر الاعظم في 24 كانون الاول 1638 هجوما كاسحا على بغداد ومن جميع الجهات، وقد قتل الصدر الاعظم اثناء الهجوم، فتولى القبودان مصطفى باشا منصب

الصدارة العظمى، الذي استأنف القتال، وبدأ هجوم القوات العثمانية من الخنادق التي كانوا يتحصنون بها، وتمكنت القوات العثمانية من السيطرة على كافة الابراج والسيطرة على بغداد في يوم 25 كانون الاول بعد حصار اربعين يوما. ونتيجة لذلك تقدم الحاكم الصفوي لبغداد (بكتاش خان) ليسلم نفسه إلى السلطان وطلب منه بإخلاء القلعة وتوجيه الكتب والرسل إلى بقية الضباط الصفويين للإعلان استسلامهم وتسليم القلعة. كما وافق مراد الرابع على منح الامان للحامية الصفوية وفق شرطين:

1. اخلاء بغداد من الصفويين في الحال.
2. ان المحاصرين مخيرون بين الالتحاق بالشاه أو الانضمام الى الجيش العثماني.

ما ان بدأ الجيش العثماني بالتدفق الى داخل بغداد حتى عاد القتال من جديد بين الطرفين، فأصدرت الاوامر من السلطان بقتل كل من يريد المقاومة من جانب الجيش الصفوي من القرلباش. وعلى اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد والقضاء على المقاومة الصفوية، صدرت الاوامر بالمحافظة على حياة السكان المدنيين، وعدم نهب ممتلكاتهم.

المفاوضات العثمانية ـ الايرانية وعقد معاهدة زهاب أو معاهدة قصر شيرين الحدودية:

ترك الصدر الاعظم بغداد في 15 اذار 1639م وبالقرب من شهربان استقبل الصدر الاعظم وفدا ايرانيا برئاسة محمد قولي خان، الذي اجتمع مع الصدر الاعظم في 23 نيسان 1639م غير أن هذا الاجتماع لم يؤد إلى نتيجة، فقرر عقد اجتماع اخر في موضع يقال له قزلرباط.

اثار الصدر الاعظم في هذا الاجتماع مشكلة التحشيدات الصفوية في الحدود الشرقية، وسيطرة الصفوين على بعض القلاع التي تشكل مصدر خطر للدولة العثمانية،

واخيرا اشار الصدر الاعظم على الوفد الصفوي، انسحاب القوات الصفوية من درتنك ودرنة واعتراف الشاه بتبعية قلعة قارص للدولة العثمانية، كشرط اساسي للدخول في مفاوضات للصلح. رجع الوفد الصفوي لعرض وجهة النظر العثماني على الشاه صفي الصفوي، إلا أن الصدر الاعظم ارسل رسالتين الأولى إلى رستم خان قائد الحامية الصفوية في درتنك ودرنة، والثانية إلى الشاه صفي طالبا رد جواب الأولى في ثلاثة ايام، والثانية في ستة ايام. وقد تناهت للصدر الاعظم اخبار انسحاب القوات الصفوية من درتنك، فتقدم الجيش العثماني نحو خانقين وفي موضع يقال له زهاو وصل المندوب الصفوي صاروخان في 14 ايار 1639م حاملا موافقة الشاه صفوي على المطاليب العثمانية واستعداد بلاده لإنهاء الخلافات بين الدولتين.

بدأت الجلسات الصفوية – العثمانية الأولى برئاسة صاروخان والعثمانية برئاسة الصدر الاعظم مصطفى باشا، وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق التام بين الطرفين على انهاء النزاع حول الحدود. بعد تطابق اراء الطرفين حول النقاط المطروحة على بساط البحث، وقع المندوبان على محضر الجلسات في 17 ايار 1639م، وباللغتين التركية والفارسية، ثم جرى التصديق على المعاهدة من قبل الدولتين في السنة نفسها اذ صادق عليها الشاه صفي في 21 ايار 1639 ثم ارسلت للسلطان مراد الرابع فوقعها في 3 حزيران من العام نفسه، واعتبرت المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ التوقيع، واستمرت سارية المفعول دون اعتراض من الجانبين لفترة طويلة من الزمن. وقد نصت على تكون بغداد والبصرة والموصل وكردستان الغربية وشهرزور من نصيب الدولة العثمانية، في حين تكون اذربيجان الشرقية وراوندوز وارمينيا الشرقية وبلاد الكرج من نصيب الدولة الصفوية.

إن معاهدة زهاب تعتبر أول معاهدة بين الطرفين بالمعنى الصحيح من حيث اقرار الحدود وتعريفها بشكل واضح، وتأشيرها المناطق العائدة إلى كل جانب ويجدر بنا أن نشير إلى النقاط التالية التي اتسمت بها هذه المعاهدة:

1. امتازت هذه المعاهدة بانها حددت مناطق الحدود الممتدة من الشمال حتى الجنوب بعكس المعاهدات السابقة التي اقتصرت على تحديد جزء معين من الحدود مثل معاهدات 1555م، 1568م، 1590م، 1613م، وهي معاهدات لم تعط تعريفا واضح للحدود بين الدولتين، وكل ما يستفاد منها، بانها كانت توفر حالة من الاستقرار والامن في مناطق معينة من الحدود.
2. المعاهدة اخذت بنظر الاعتبار العامل الطبيعي في رسم الحدود بين الدولتين.
3. فرض الجانب العثماني شروطا معينة لعقد الصلح منها هدم بعض القلاع الواقعة على الحدود، وهذا يعني أن العثمانيين كانوا ينطلقون في مفاوضاتهم مع الجانب الصفوي من منطق القوة.
4. إن معاهدة زهاب كغيرها من المعاهدات التي تعقد بين دولتين اسلاميتين يغلب عليها الطابع الديني، وقد وردت في المقدمة الاية الكريمة ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي الخاتمة وردت الاية الكريمة ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ وقد اشار الطرفان في الخاتمة إلى انهما سيلتزمان ببنود المعاهدة، وكل من يخالف هذه المعاهدة سيقع عليه اثم عظيم وانه مسؤول امام الله.
5. شطرت هذه المعاهدة بعض العشائر الكردية مثل عشيرة الجاف، إلى شطرين بحيث بقي قسم منهم في الجانب العثماني واخر في الجانب الصفوي فقد بقيت عشيرة ضياء الدين وهاروني، وهما فرعان من الجاف في الجانب العثماني بينما ظلت بيره وزودى من نفس العشيرة في الجانب الايراني وقد اصبحت هذه العشيرة نتيجة لهذا لتقسيم مصدر متاعب لكلتا الدولتين.
6. اهملت هذه المعاهدة الاشارة إلى طبيعة الحدود بين العراق وايران في المناطق الجنوبية، وبوجه خاص منطقة عربستان التي اصبحت فيما بعد من المناطق المتنازع عليها بين الدولتين العثمانية والصفوية.

7. إن معاهدة زهاب اوجدت بعض الهدوء والاستقرار النسبيين على الحدود بين الدولتين استمر حتى بداية القرن الثامن عشر، ولم يكن الباعث على هذا الهدوء والاستقرار رغبة الفريقين الالتزام ببنود المعاهدة نصا وروحا، بل لانشغالهما بمشاكلهما الداخلية وحروبهما في الجهات الأخرى.
8. نصت المعاهدة على دخول (درتنك ودرنة) في حكومة بغداد مع أن هاتين المنطقتين كانتا ضمن ولاية بغداد، وقد فرط العثمانيون بهما عندما تنازلوا عنهما بموجب معاهدة سراو عام 1618م وان اعادتها تصحيح لحالة غير طبيعية على الحدود.
9. لقد فرط العثمانيون بأراضي عراقية عندما تنازلوا عن مهروان (مهربان وتوابعها) للدولة الصفوية، وهذه المنطقة كانت ضمن ولاية شهرزور، وقد اعترفت الدولة الصفوية بتبعيتها للعراق بموجب معاهدة 1590م.

ـ الاوضاع في العراق بين(1638 ـ 1704):

قبل استعراض اوضاع العراق خلال العهد العثماني الثاني لابد من تبيان الميزات العامة التي امتاز بها الحكم العثماني، وايضاح الظروف السيئة التي عاشها العراق خلال هذا العصر. لقد سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكثير من الدمار والخراب في بغداد. وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حتى اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغير الولاة، اذ حكم في الحقبة من 1639-1704 تسعة وثلاثون واليا، لم يترك أي واحد منهم عند عزله أو نقله اثر يذكر باستثناء اربعة قام احدهم ببناء ثلاثة ابراج لسور بغداد وجامع الازبك، وبنى الثاني جامع الخاصكي، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل، اما الرابع فبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية. وقد ساعدت سرعة تغير الولاة على خلق حالة عدم

الاستقرار. ومن المظاهر الاخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الامن خارج اسوار المدن وادى ذلك الى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة. ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفيضانات والقحط التي اسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية.

قام مراد الرابع بعد انجاز احتلال بغداد بالتوجه لزيارة مقام الامام الاعظم ثم زار مرقد الامام موسى الكاظم. ومن اجل تنظيم الادارة في بغداد اتخذ السلطان عدة ترتيبات، فعين كوجك حسن اغا الانكشارية واليا على بغداد، كما قرر ترك حامية مؤلفة من 8.000 جندي للمحافظة على بغداد، وعين على قيادتها بكتاش اغا، كتخذا الانكشارية، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان، أمّا منصب قاضي بغداد فقد عهد به إلى مصطفى التذكره جي، وقيل اسمه تذكر جي موسى افندي. لقد كان هم الباشا الجديد هو ترميم اسوار بغداد التي تهدمت اكثر جوانبها اثناء حصار بغداد بفعل المدفعية العثمانية، والعمل على اعادة السكان الذين التجأوا فزعا إلى اطراف بغداد، غير أن حسن باشا عزل في 4 ايار 1639م، فحل محله درويش محمد باشا، وقد حدثت في الايام الأولى من حكمه اضطرابات عشائرية في منقطة السماوة، إذ قام امير الخزاعل مهنا بن علي بفرض سيطرته على السماوة واطرافها حتى منطقة الجوازر، فبعث درويش محمد باشا كتخداه علي اغا لضربهم، وقد سيطر هذا على هيت ثم توجه إلى السماوة ففرق جموع الثائرين وقتل كثير منهم، وعند رجوعه احتل العرجة التي اصبحت تحت نفوذ والي بغداد. وقد خلف درويش محمد باشا في حكم الولاية عام 1642م، كوجك حسن وللمرة الثانية، وقد قام ببناء ثلاثة ابراج قرب باب الامام الاعظم في المحل المعروف بـ (طابية ذي الفقار)، وشيد جامعا عرف باسم جامع عتيق حسن باشا تمييزا له عن جامع اخر يعرف بهذا الاسم والذي شيده وال بنفس الاسم، وجاء بعد عزل حسن باشا إلى حكم الولاية حسين باشا دللي، الذي كان من مرافقي السلطان مراد الرابع، غير أن حكم الباشا لم يستمر طويلا إذ عزل في عام 1644م بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، وبسبب عزله وصول خصمه محمد باشا كوبرلو إلى الصدارة العظمى، وخلفه في حكم بغداد عام 1645م، محمد باشا ال حيدر الذي عزل هو الاخر بعد حكم دام سنة واحدة،

ليخلفه موسى باشا. ويعد النزاع العنيف الذي حدث بين الجيش الانكشاري والقوات المحلية في عهد ابراهيم باشا الذي تسلم حكم الولاية في ايلول 1646م، من الحوادث المهمة، والذي يدل على مدى ضعف سلطة الوالي وعدم انصياع الجيش الانكشاري لأوامره فقد نقم الجيش الانكشاري على ابراهيم باشا الذي اتهم انه يقرب القوات المحلية ويبذر عليهم الاموال، لذا كانوا ينتظرون الفرصة السانحة للتخلص من واليهم الذي يميز بينهم وبين القوات المحلية، وقد وجدوا تلك الفرصة عندما تناهت اخبار وفاة الصدر الاعظم صالح باشا الذي كان اكبر سند لإبراهيم باشا، فقرروا التخلص منه. لقد وجد ابراهيم باشا نفسه امام مأزق خطير، فخصومه في الباب العالي، سيسلكون كل السبل لإزاحته عن منصبه، هذا من جهة والجيش الانكشاري الغاضب عليه من جهة اخرى، لذا قرر مصالحة الانكشارية قبل فوات الاوان، غير أن وصول متسلم ولاية بغداد وهو يحمل فرمان عزله افسد عليه هذا المسعى. لقد رفض ابراهيم باشا مقابلة المتسلم، وقرر الدفاع عن ولايته معتمدا على القوات المحلية التي كانت تأتمر بأوامره، وهنا لجأ احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية إلى خطة ذكية، فقد امر بعضا من الجيش الانكشاري الاحاطة بالسراي فذهب بنفسه إلى ابراهيم باشا، واعلمه أن الانكشارية يتهمونه بانه يحاول أن يستبد بحكم بغداد والخروج عن طاعة السلطان العثماني، وعندما انكر الوالي ذلك، طلب منه أن يذهب بنفسه إلى القلعة ليفهم الانكشارية بذلك، فقام الوالي فتوجه إلى القلعة، وعند دخوله القي القبض عليه، فوقع بذلك في الفخ الذي نسبه له احمد اغا التنجي رئيس الانكشارية ولم يستطع الجيش المحلي انقاذ الوالي بالرغم من الهجمات المتكررة على القلعة. يبدو إن هذه الخطة لم تكن من بنات افكار التنجي، وانما كانت من صنع دهاة العاصمة اسطنبول، بدليل أن الميراخور قد وصل إلى بغداد بعد ايام قلائل من القاء القبض على ابراهيم وهو يحمل فرمان اعدام الوالي المعزول، فنفذ به حكم الاعدام. وسرعان ما وصل والي بغداد الجديد موسى باشا السمين الذي كان شخصا مشهورا بالبدانة المفرطة، وكان أول عمل قام به أن أنزل جام غضبه على كل شخص يشك فيه بانه من انصار الوالي المعزول، واضطر كثيرا من سكان بغداد أن يلتجئوا إلى اطراف بغداد مخافة أن يصيبهم غضب الحاكم، لقد دفع هذا التصرف من قبل الوالي السكان إلى

تقديم شكوى إلى الباب العالي، فتشكلت لجنة للتحقيق في الامر، وعندما ثبت صحة ادعاء السكان استدعى موسى باشا إلى الباب العالي ونفذ فيه حكم الاعدام عام 1648م، فخلفه في حكم بغداد احمد باشا الذي لقب بـ (الملك) لسلوكه الحسن وفضائله وزهده في حياته اليومية، وحسن معاملته للناس، وخاصة الفقراء منهم الذين تلقوا كل عناية وحماية من لدنه، ترك احمد باشا حكم بغداد عام 1650م، وارتقى الصدارة العظمى في نفس السنة، وقرر منح بعض الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام في ولاية بغداد. ويبدو أن الدافع وراء اتخاذ الصدر الاعظم هذا الاجراء هو عجز الخزينة العثمانية الذي بلغ إلى درجة، أن اضطرت الدولة إلى فرض ضرائب تصاعدية واستيفاء ضرائب سنتين مقدما من الولايات ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة إذ تدهورت القيمة الشرائية للعملة العثمانية. ومعروف أن الاجراء السابق الذي اتخذه الصدر الاعظم بشان منح الاراضي الاميرية عن طريق الالتزام، كان ذو وجهين، الأول انه في صالح الخزينة العثمانية إذ يضمن مورد ثابت لها، أمّا الثاني فقد تضرر الفلاحون منه بسبب جور الملتزمين وقساوتهم في جمع الضرائب والرسوم، لكي يحققوا الارباح التي يبغونها، دون أن يعيروا ادنى التفاته إلى الكوارث الطبيعية التي تحدث بين آونة واخرى والتي تؤثر على كمية المحصول ويجبر الفلاح على ترك قريته في حالة عجزه عن دفع الضرائب والرسوم المفروضة عليه من قبل الملتزم، جاء إلى حكم بغداد سنة 1650م، ارسلان باشا نغاى زادة الذي مات بمرض الزحار بعد حكم دام اقل من ستة اشهر، ولم يكن خلفه حسين باشا احسن حظا منه، إذ مات هو الاخر بالمرض نفسه بعد ستة اشهر أيضاً.

وفي عهد الوالي قره مصطفى باشا الذي قدر له أن يكون واليا على بغداد ثلاث مرات متباينات، زار الرحالة الفرنسي تافرنيه بغداد عام 1652م الذي ذكر أن المدينة ساذجة البناء، لا جمال فيها اللهم إلاَّ إذا استثنينا اسواقها المسقفة، ووجد في المدينة خمسة جوامع، وعشر، خانات بناءها قديم ما عدا اثنين منها ينال المسافرون فيها قسطا من الراحة، وذكر أن تجارة المدينة واسعة ولكن ليست كما كانت في ايام الاحتلال الصفوي، وقدر عدد سكان بغداد بخمسة عشرة الف فقط، وهذا الرقم اقل بكثير مما ذكره المؤرخ الاقتصادي التركي

عمر لطفي بركان الذي قدر عدد سكان بغداد ما بين سنة 1570-1590م استنادا إلى الوثائق العثمانية بـ 39379 الف مسلم عدا البدو الرحل، واليهود والمسيحيين، ويجب أن لا نستغرب من ضالة هذا العدد، فالحروب التي شهدتها بغداد بين الجيوش العثمانية والصفوية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، والكوارث الطبيعية التي حلت بها، اضافة إلى ظلم بعض الولاة، وفي ايلول عام 1653م، جاء إلى حكم بغداد مرتضى باشا بعد أن حكم في ولايتي دمشق وارضروم، وقد عرف بنزعته الدينية واطعامه للفقراء وحبه لهم، وتواضعه مع الناس حتى احيط بهالة من التقديس، وشاعت حوله كثير من الروايات التي كانت تدور حول تواضعه، وقد جاءت نهايته عام 1655معندما اخفق في حملته على البصرة، فجاء من بعده اق محمد باشا (الابيض) عام 1655م الذي حكم سنة واحدة واربعة اشهر، وكان طوال مدة حكمه مريضا غير قادر على إدارة دفة الحكم، فاستغل الانكشارية ضعفه عليه، ولكن الباشا الابيض استطاع أن يستدرج قائدهم المدعو عبدي إلى مجلسه بحجة مصالحته، وعند جلوسه امر جلاده بقطع راسه. لقد اثار عمله هذا نقمة الانكشارية الذين صمموا على اخذ ثار قائدهم، وصادف ذات يوم أن خرج الباشا الابيض لإداء الصلاة في مسجد الامام الاعظم، فتصدى له اثنان من الانكشارية وشهرا بوجهه سيفهما، وتبعهما الكثير من الناس، فاضطر الوالي رغما عنه العودة إلى السراي لاتخاذ ما يلزم لقطع دابر هذه الفوضى، وفي هذه الاثناء وصل مبعوث سلطاني وهو الخاصكي حسين اغا للاطلاع على شؤون الولاية وعندما وجد الحالة المزرية، والفوضى الضاربة في بغداد اخبر السلطان العثماني محمد الرابع (1648-1687م) فاصدر هذا فرمانا خوله بموجبه اعادة الاوضاع إلى سابق مجراها. ولم يجد الخاصكي بدا من عزل محمد باشا الابيض ثم القضاء عليه فيما بعد، جاء الوزير محمد باشا الخاصكي إلى الحكم عام 1656م، والذي اشتهر بنزعته الدينية ورغبته المعروفة في تعمير المساجد واصلاحها، فبنى مكان كنيسة القديس يوسف المتهدمة جامعا يؤمه المسلمون واعلى قبته وبنى له منارة، وجعل طبقاته مقرنصة واتخذ له جدرانا قوية فسمي باسم جامع الخاصكي أو جامع نور سلحدار محمد باشا، وحدثت في عهده ثورة قامت بها بعض العشائر في منطقة الجوازر، فاقتضى الحال إرسال قسم من الانكشارية

لتأديبهم، غير أن فتنة خطيرة نشبت بين افراد الجيش المرسل قبل الوصول إلى الجهة المقصودة فانحل الضبط العسكري وتشتت شمل الجيش الذي بدأ ينسحب نحو بغداد. أمّا الخاصكي فقد ازعجته انباء الانشقاق في صفوف الجيش فاجتمع مع اغا الانكشارية وعرض عليه فكرة منع دخول الجيش المنشق إلى بغداد حتى يسلموا رؤوس الفتنة، فعلى هذا اغلقت ابواب المدينة وخيم الجيش الرابع حول السور ثلاثة ايام، ولكن شيئا حدث قلب الامور راسا على عقب، إذ حدث اتصال سري بين الجيش الراجع وبعض قادة الانكشارية في داخل بغداد والذين سهلوا فتح ابواب المدينة، فاندفع المتمردون إلى داخل المدينة التي اصبحت مسرحا للفوضى والاضطراب، أمّا الخاصكي فقد تسلل سرا إلى الجانب الغربي من بغداد فهرب تاركا بغداد تئن تحت رحمة ثلة من الانكشارية.

لقد حدث انقسام خطير بين الجيش الانكشاري المتمرد بعد هروب الوالي، فانقسموا إلى فريقين، فريق يرى ضرورة مصالحة الوالي وارجاعه إلى منصبه وفريق اخر يرى عكس ذلك واخيرا انتصر راي الفريق الأول وقبض على افراد الفريق الثاني، وتوجهوا إلى الوالي الذي كان في الكاظمية يلتمسون منه العذر عما بدا منهم فرجع الخاصكي وانزل جام غضبه بكبار المحرضين وقطع رواتب الكثير منهم، كما شهد عهد الخاصكي في عام 1656م فيضان مدمر كان أول حادث خطير دون عن غرق بغداد في العهد العثماني الثاني، ففي تلك السنة امطرت السماء امطارا وابلة وزادت مياه دجلة فغطت الزرع وتدفق سيل الماء إلى خندق بغداد العميق وتهدم برج الفتح (بالقرب من باب الطلسم) كما تهدمت ابراج اخرى في عدة اماكن وقد بذل الخاصكي كل ما في وسعه في تشييد ما هدمه الفيضان، وصرف من اجل ذلك اموالا كثيرة وانتهى حكم الخاصكي في منتصف صيف 1659م، وتلاه مرتضى باشا وللمرة الثانية، وكان مرتضى باشا منذ أن ترك بغداد قد ابلى بلاء حسنا في قمع الحركة الانفصالية التي كان يتزعمها اباظة باشا في منطقة الاناضول وقد اشترط عند تعينه حاكما على بغداد القيام بالأعمال التالي:

1. اعادة حفر نهر الدجيل الذي تراكم فيه الغرين.

2. جمع الواردات الرئيسية لخزانة الدولة.

3. إرسال مائتي كيس من الذهب إلى العاصمة مع كمية من البارود.

إن أول عمل قام به مرتضى باشا عند تسلمه الحكم هو جرد الخزينة وسجلاتها، فظهر له أن في ذمة الوالي السابق 600 كيس فاخبر الباب العالي ولما كان الوالي السابق من انصار الصدر الاعظم محمد باشا كوبرولو، فقد خفض المبلغ إلى مائتين وستين كيسا يدفع بإقراض لأجل غير معين. ثم انصرف مرتضى باشا إلى تطهير نهر الدجيل، فاصدر اوامره إلى حكام القرى والضواحي طالبا منهم تقديم العون البشري في تطهير النهر وقد تم تطهيره خلال ثلاثة اشهر وكان لهذا العمل تأثير كبير في بعض النشاط الزراعي، كما قام مرتضى باشا بأجراء اصلاحات مالية جديدة، فقد الغي ما كان يتقاضاه الموظفون والدفتريون من المخصصات السنوية البالغة اكثر من مائة كيس، كما ثبت الوارد والمصروف من الخزينة ودونهما في دفاتر خاصة، وكان هدفه من هذه الاجراءات هو تنفيذ ما وعد به عند استلامه باشوية بغداد، ويظهر انه عجز عن إرسال المبلغ المذكور فعمد على رفع سعر القرش من ثمانين بارة إلى تسعين بارة، فاثقل بذلك كاهل دافعي الضرائب والرسوم، ولكي يتقرب إلى المسؤولين في الباب العالي كان لا ينفك عن إرسال الهدايا إلى كبار رجال الدولة في العاصمة، وجاءت نهايته سنة 1661م حيث عزل عن منصبه ونقل إلى جزيرة كريت ولكنه رفض الاذعان لهذا الامر، واخيرا قتل بأمر السلطان.

جاء إلى حكم بغداد مصطفى باشا قنبور (الاحدب) ثم عزل في عام 1663م، فخلفه مصطفى باشا بمبوغ (القطان) الذي سرعان ما قضى نحبه، فجاء من بعده قره مصطفى باشا في العام نفسه، وفي عهده زار الرحالة الفرنسي ثيفنو بغداد وامضى فيها اسبوعا، وقد ذكر أن المدينة قليلة السكان بالنسبة إلى سعتها، واشار إلى أن الانكشارية يرتكبون الاعمال السيئة، وليس بمقدور قادتهم معاقبتهم، كما جلب انتباهه وجود عدد من المسيحيين في خدمة الباشا، وان بعضهم يعمل في تطبيب الناس بشفقة بالغة. وليس من بين الولاة الذين تعاقبوا على حكم بغداد بعد سنة 1664م، من يستحق الذكر إلاَّ عمر باشا الذي جاء إلى حكم بغداد

سنة 1678م، الذي قام بإجراء ترميمات في جامع الاعظم ومرقد الامام أبي يوسف، كما بنى المدرسة العمرية بالقرب من جامع القمرية، وعين لها مدرسين وخصص لها رواتب، وقد قام الوزير ابراهيم باشا الطويل الذي جاء إلى حكم بغداد سنة 1681م بكسر شوكة الانكشارية، عندما نفى فرقة اليساقجية من بغداد، التي كانت مصدر خطر وعبث وفوضى في الولاية.

لقد عانت بغداد كثيرا من سرعة تنقل الولاة من منصبهم، هذا التنقل الذي يخلق نوعا من عدم الاستقرار السياسي، إذ لا يتيح للوالي الفرصة الكافية للتفكير بأحوال ولايته، لذا لم يتسن لكثير من ولاة بغداد القيام بإصلاحات اقتصادية واجتماعية وثقافية، عدا البعض منهم مثل مرتضى باشا الذي اعاد حفر نهر الدجيل، وعمر باشا الذي اجرى تصليحات في بعض المراقد الموجودة في بغداد، بالإضافة إلى سرعة تنقل الولاة، فان الكوارث الطبيعية هي الأخرى كانت تعمل على ايجاد نوع من عدم الاستقرار، ففي عام 1649م، فاض نهر دجلة وكادت أن تغرق بغداد، كما حدث في عام 1693م فيضان مدمر اثر تأثيرا كبيرا على المزروعات التي اتلفت اكثرها، وانتشر في عام 1690م مرض الطاعون في بغداد واطرافها، وفتك بالناس فتكا ذريعا، واضطر بعض السكان النزوح إلى المناطق المجاورة، وانتهزت العشائر هذه الفرصة، فقامت بأعمال النهب والسلب. وقد بلغ التدهور الاقتصادي في العراق درجة بحيث ان علي باشا والي بغداد عام 1703 ارسل في طلب 400 كيس اقجة لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية.

واذا اردنا أن نبحث عن الاسباب الكامنة وراء هذا التبدل السريع في ولاة بغداد، فعلينا أن نبحث عن بعضها في العاصمة العثمانية أولا ثم في الولاية ثانيا ويمكن أن نحدد هذه الاسباب بالنقاط التالية:

1. بعد أن كان حكام الولايات يعينون في بادئ الامر مدى الحياة أو ما دام سلوكهم حسنا، فان القانون الذي سنه السلطان مراد الثالث (1574-1595م)، كان يقضي بعزل حكام الولايات في كل ثلاث سنوات ثم خفضت هذه المدة

في النهاية إلى سنة واحدة، وبالرغم من أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة فقد وجد بعض الولاة من حكم اكثر من سنة، إلاّ أن هذا القانون كان له تأثيره السيء على سلوك الولاة.

2. لقد ترتبت نتائج خطيرة على الغاء نظام الدوشرمة، إذ تضاعف عدد المرشحين للوظائف العليا، ورفع من اقدار عدد كبير من الانكشارية الذين لم يتلقوا التدريب الصارم الذي كان يفرض في الايام الأولى، وقد دخل هؤلاء في صراع عنيف فيما بينهم، من اجل الوصول إلى الصدارة، واصبح لكل من هؤلاء انصار وحلفاء لذا كان حكام الولايات، يعيشون تحت عقدة الخوف من مؤامرات منافسيهم. والنتيجة الاخرى التي ترتبت على الغاء الدوشرمة أن اصبح لقب الوزير، يمنح بإسراف بعد أن تضاعف عدد شاغلي الوظائف العليا.

3. الصراع بين القوات المحلية والانكشارية، فكثيرا ما سبب هذا النزاع عزل الوالي أو قتله أو أن الوالي ينقل إلى منصب اعلى.

4. قلة كفاءة بعض الولاة، وجهلهم بأساليب الحكم والادارة وظلمهم للناس وان البعض من هؤلاء الولاة كان مريضا عاجزا عن إدارة دفة الحكم، فضلا عن دور العشائر العربية التي كانت تتباهى بعصيان الحكومة والخروج عليها، يبدو أن كل هذه الاسباب مجتمعة، كانت تعمل على سرعة نقل الولاة، وبالتالي فقدان الامن والاستقرار السياسي في ولاية بغداد.